# الشاعر وتجربته الشعرية

# في ظلال سورة الشعراء

**مصطفى عليان***

ذهب جمهور العلماء إلى أن سورة الشعراء مكية بآياتها جميعاً،[1] على الرغم من أن غير واحد من الصحابة والتابعين قال بمدنية الآيات الأربع أو الخمس الأخيرة، قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:224-227)، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير، واخرج النحاس بسنده عن ابن عباس أيضاً قال: "سورة الشعراء أنزلت بمكة، سوى خمس آيات آخرها نزلت بالمدينة، وهي ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ...﴾ إلى آخرها"،[2] وبمثل ذلك قال مقاتل بن حيان وقتادة: "هي مكية إلاّ أربع آيات منها نزلت بالمدينة".[3]

ولعلّ مُعتَمَد جمهور العلماء في القول بمكية الآيات الأخيرة من سورة الشعراء أنها جاءت في سياق لتنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يكون –وحاشاه– من الشعراء، وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر، ودفع الافتراء الذي يذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم من جملة من يلقى غليه الشيطان السمع من الكهنة، ببيان استحالة تنزل الشياطين عليه صلى الله عليه وسلم، غذ يقول تعالى ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء:210-121). فقد أبانت الآية أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال الرسول إلا الصدق، فكيف يكون كما

---

* دكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر 1398هـ/1978م. أستاذ بقسم اللغة العربية، كلية الآداب بالجامعة الهاشمية بالزرقاء بالأردن.

1 القرطبي، (أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق إبراهيم اطفيش، القاهرة: الكتاب العربي، 1967، ج13، ص87.

2 الشوكاني (محمد بن علي بن محمد): فتح القدير، مكة المكرمة: المكتبة التجارية، 1991م، ج4، ص108.

3 القرطبي، المصدر نفسه، ج13، ص87.

زعموا؟! فالظاهر من هذه الآيات أنها نزلت كما يقول الألوسي للرّد على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا.[4]

ولذلك ربط ابن كثير بين هذه الآيات في سورة الشعراء التي تناولت أحوال الكهان والشعراء، وما جاء في السور المكية من نفي الكهانة والشعر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "والمراد من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة:40-42)، وهكذا إلى أن قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء:221-222).[5]

وذهب ابن تيمية المذهب نفسه في الربط بين الكاهن والشاعر في صنعة اللفظ الموزون والمعاني المستوحاة من الشيطان فقال: "فالكاهن مُستمِدٌّ من الشياطين ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ...﴾، وكلاهما في لفظه وزن، وهذا سجع، وهذا نظم، وكلاهما له معانَ من وحي الشياطين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفثه ونفخه"، وقال: همزه: المؤتة، ونفثه: الشعر، ونفخه: الكبر".[6]

ومعنى ذلك أن مصدر التلقي عند الشاعر الكافر والكاهن هو الشيطان إذ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (الأنعام:112) من الأكاذيب المموهة بالسجع عند الكاهن، والأباطيل المزخرفة بالإيقاع والنغم عند الشاعر؛ وقد حاء الربط بينهما في قرآن واحد محكياً عن المشركين في سياق الآيات الكريمة بما يرشد إلى توحد الصنعتين في مصدرية التلقي عن الشيطان، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ .

---

4 انظر: الشوكاني: فتح القدير، ج4، ص139، والألوسي: روح المعاني، بيروت: إدارة الطباعة المنيرية، 1985م، ج21، ص145.

5 ابن كثير (أبوالفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي ت774هـ): تفسير القرآن العظيم، دمشق: دار الفيحاء، 1995 ج3، ص354.

6 ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم ت728هـ): الفتاوى، الرباط: مكتبة المعارف، ج2، ص51، والحديث مرفوع (انظر مدارج السالكين).

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:38-43).

وجعل الله علامة من تنزل عليه الشياطين بأنه ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (الشعراء:222) وأنه مضل لغيره ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء: 224)، فظاهر القرآن كما يقول ابن تيمية: "ليس فيه أن الشعراء تتنزل عليهم الشياطين إلاّ إذا كان أحدهم كذاباً أثيماً، فالكذاب في قوله وخبره، والأثيم في فعله وأمره".[7]

وإذا دققنا النظر في بقية تقول قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبدَّى لنا مصدرٌ آخر للتلقي عند الشاعر الكافر هو الوهم والخيال الصادر عن الجنون وأضغاث الأحلام، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء:5)، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات:36-37)، والأضغاث: أهاويل يراها النائم، أو رؤى كاذبة مما لم يكن له تأويل.[8]

وفي حمّى تصور المشركين هذا لمصادر تلقي الشاعر، لم يكن غريباً أن يكون الضلال هو الفلك الذي تتشكل في مداره عناصر تجربته الشعرية من الكذب والوهم والخيال في مرحلتي الخاطرة والتعبير، فالشاعر ضال في تصوره وتصويره، مضل في توجيهه وتأثيره، فلا يطرب لقوله، ولا يعجب بشعره تأثراً وحباً، ورواية ونقلاً، إلاّ الغواة باختلاف أجناسهم من الإنس والجن والعصاة والمشركين والشياطين، "ذلك أن الله عمّهم بقوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، فلم يخصص بعض الغواة دون بعض، فدل على جميع أصناف الغواة التي دخلت في عموم الآية"،[9] إذ الغاوي كما يقول ابن تيمية: "الذي يتبع هواه بغير علم، كما أن الضال الذي لا يعلم مصلحته".[10]

وخطاب الشاعر لتابعيه مركوز في أهواء النفس وشهواتها، بعيد عن التوجه إلى علمها ومعتقداتها، إذ إنه صورة الشعور التي تحمل في طيّاتها براعة تحدث هزّة وانتعاشاً، يتحرك التابع بها حركة لا شعورية حباً

---

7 ابن تيمية: الفتاوى، ج2، ص51 (مصدر سابق9.

8 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج11 ص270.

9 الطبري (أبوجعفر محمد بن جرير ت310هـ): جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت: دار المعرفة، 1978، ج19، ص27.

10 ابن تيمية: الاستقامة، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، القاهرة: مكتبة السنة، 1409هـ، ج2، ص281-282.

وبغضاً، وكرهاً وإعجاباً، وإقبالاً وإدباراً. يقول ابن تيمية: "لما كان الشعر مستفاداً من الشعور، فهو يفيد إشعار النفس بما يحركها وإن لم يكن صدقاً، بل يورث محبة أو نفرة أو رغبة أو رهبة، لما فيه من التخييل، وهذا خاصة الشعر، فلذلك وصفهم بأنه يتبعهم الغاوون".[11]

وعلى الرغم من أن الشياطين مصدر فاعل عند كل من الشاعر والكاهن، إلاّ أن الإغواء صفة تكاد تقتصر على صنعة الشاعر دون الكاهن، إذ الغي: ابتاع الشهوات؛ لأنه يحرك الناس حركة الشهوة والنفرة والفرح والحزن بلا علم، وهذا هو الغيّ، بخلاف الإفك، فإن فيه إضلالاً في العلم، بحيث يوجب اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به".[12]

وإذا انحصرت مهمة الشاعر في هذا المسار، ولم تبرح علاقتهُ بالمتلقي أطرَ هذا المجال من تحريك الانفعال، "كان أشد افتقاراً إلى السامع من السامع إليه، لشغفه أن يذكر في البلغاء، وصبابته باللحاق بالشعراء، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة، وولد ذلك في قلبه شدة الحمية وحب المجاذبة".[13]

وينزع الشاعر الكافر أو المشرك في تحقيق هذه الوظيفة إلى خطاب شعري يرتكز على أبعاد ثلاثة، تغري باتباع الشهوات، وترغبي النفوس في هواها، وتحركها نحوها، وهي بعد ذلك قد تتداخل في مفاهيمها، على الرغم من ذكرها محددة في أسلوبين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾، وهذه الأبعاد هي:

**الأول**: الفن القائم على الإيهام والخيال لا على الحقيقة والواقع، أو الحق والصدق، وقد حاء احتواء ذلك بتعبير الهيام في كل وادٍ، وهو "مثل ضربه الله لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حق"، كما يقول الطبري، أو هم في كل لغو يخوضون كما قال ابن عباس، أو في كل فن يفتنون، كما قال مجاهد، يمدحون قوماً بباطل، ويشمتون قوماً بباطل، كما قال قتادة،[14] وذلك لكه بفعل الخيال أو قوة المخيلة التي تتحرر في غيبة سلطان العقل من كل قيد، ويطلق سراحها في كل وادٍ من أودية القيل والقال، وفي كل شعب

---

11 ابن تيمية: الفتاوى، مصدر سابق، ج2، ص43.

12 المصدر نفسه، ج2، ص43.

13 الجاحظ (أبوعثمان عمرو بن بحر ت250هـ)، البيان والتبيين، حقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، 1985، ج4، ص30.

14 الطبري: جامع البيان، مصدر سابق، ج9، ص128.

من شعاب الوهم والخيال، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال، فيهيم الشعراء على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل، بل يتحررون في فيافي الغواية والسفاهة، ويتيهون في تيه المجون والوقاحة، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية، والقدح في الأنساب الطاهرة السنية، والنسيب بالحرام والغزل والابتهار.[15]

والعلاقة بين العقل والخيال والوهم تقوم على التناسب العكسي، ففي ظل هيمنة العقل وسلطانه يتقيد سراح الخيال، ويُحَدَّد إطلاق الوهم وانفلاته، ويتحرر الخيال والوهم في غيبة العقل الضابط، تماماً كما يحدث للإنسان عند النوم، إذ تطيش الأحلام والرؤى بقوة المخيلة حرة التصرف والحركة، حيث تذعن لأهواء النفس ورغباتها، وتسعى لما تهفو إليه من نوازع البدن وغرائزه وحاجاته، فتركب لها صوراً تشتاق إليه ولا تستطيع تحقيقه في اليقظة في شتى المجالات السوية والمنحرفة.[16]

وفي ظل انحراف المخيلة بالوهم وفساد المزاج والتصور، جرت أغراض الشعراء بين إفراط وتفريط: إفراط في المدح وتفريط في الهجاء، ففضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وبهتوا البريء، وفسّقوا التقي، رغبةً في تحسين القول وتسلية النفس، بعيداً عن الحق أو الاعتدال.[17]

**الثاني**: الكذب: وإذا كان شعراء الغواية يسعون إلى تحريك استجابة المتلقي النفسية أو الشعورية غير الواعية حركة التذاذ أو دهشة أو تعجب، وانحصرت مُهمتهم في التأثير دون العلم والاعتقاد، فإن الحق والصدق بالمفهوم الخلقي المبدئي أبعد ما يكون عن رؤية هذا الشعر، فاعتمد لذلك على قوة المخيلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، لافتعال الشعور وتزوير الإحساس. وقد أبان عن ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه في حواره لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: "يا خليفة رسول الله، تألف الناس، فأخذ بلحيته وقال: يا ابن الخطاب أَجبّاراً في الجاهلية خواراً في الإسلام، علامَ تألفهم؟ أعلى حديث مفترى، أم

---

15 أبوالسعود: (ابو السعود بن محمد العمادي الحنفي ت982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، 1952، ج4، ص239.

16 انظر: د. ألفت الروبي: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، بيروت: دار التنوير 1983، ص61.

17 أبوالسعود: تفسير أبي السعود، مصدر سابق، ج4، ص239، والجامع لأحكام القرآن، 148/13.

على شعر مفتعل"، فذكر الحديث المفترى والشعر المفتعل، كما ذكر الله الأفاكين والشعراء، وكان الإفك في القوة الخبرية، والشعر في القوة العملية الطلبية.[18]

وترتب على ذلك أن الشعراء غدوا قادرين على أن يمدحوا الشيء بعد أن ذاقوه، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم كما يقول الفخر الرازي: "لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق"،[19] وهذا يعين مباينة من كانت هذه صفته للإخلاص في التعبير عن التجربة الشعرية، ومفارقته لما نسميه الصدق الفني، خاصة حين نجد مثل هؤلاء الشعراء يرغّبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس ويهجونهم بأدنى سبب، وهذا علامة الغواية ومن مدلولها وبعض أساليبها.

وأكاذيب الشعراء تتخذ من تحسين القبيح وتقبيح الحسن أسلوباً منهجياً في الغواية أيضاً، وهو ما ينسب إلى ابن عباس تفسيراً للغواية، إذ قال في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ هو تقبيحهم الحسن وتحسينهم القبيح"،[20] إذ لا يلتزم الخطاب الشعري الكافر غالباً بالحقيقة الأخلاقية، ولا يتصف شعره بما نسميه الصدق الأخلاقي، الذي عبر عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثناءً على زهير بن أبي سلمى: "لا يقول إلاّ ما يعرف، ولا يمتدح الرجل إلاّ بما يكون فيه"؛[21] ذلك أن الشعراء إنما يمدحون من لا يستحق المدح كما يقول الزمخشري،[22] وينسبون الرجل البخيل إلى الكرم، ويلحقون الجبان بركب الشجعان، وما إلى ذلك من مسالك الكذب ومداخل قول الزور.

وعلى الرغم من أن تحسين القبيح وتقبيح الحسن غايتان للمحاكاة الشعرية تتصف بهما المواهب الشعرية وتتفاضل في ظلهما، إلا أنهما في المنظور الإسلامي ليستا مقصودتين لذاتهما، إذ إنهما لا تهدفان إلى غاية أخلاقية أبعد، هي الحث على الفعل المرغوب فيها، أو النهي عن سلوك آخر مرغوب عنه، كما يرى

---

18 ابن تيمية: الفتاوى، ج2، ص42.

19 الفخر الرازي: (فخر الدين محمد بن عمر الرازي ت606هـ): التفسير الكبير، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ج4، ص175.

20 أبوحيان الأندلسي (محمد بن عمر يوسف الغرناطي ت754هـ): البحر المحيط، بيروت: دار الفكر، 1983، ج7، ص49؟

21 أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين ت356هـ): الأغاني، القاهرة: وارة الثقافة المصرية، ج10، ص290.

22 الزمخشري (محمود ن عمر ت528هـ): الكشاف، القاهرة: دار الريان، 1987، ج3، ص343.

الفلاسفة المسلمون؛[23] ثم يترتب بعد ذلك السلوك الإنساني بتأثير من صورة الحسن والقبح التي يفترض أن الشاعر ملتزم فيهما بمجموع القيم الأخلاقية التي جاء بها الشرع.

**الثالث:** الصنعة المتكلفة: ولما كان الإغواء مسكوناً بما يحرك الرغبات بأنواعها، مركوزاً بما يبعث الشهوات على اختلاف أجناسها -لأن الشعر مُوجَه أساساً إلى شعور المتلقي ونفسيته التي ترتبط بالانفعال والغريزة المحركة لسلوكه ونوازعه- تعبد الشعراء في طلب الألفاظ، وتكلفوا في استخراج المعاني، فكان من الخصال التي ذمهم الله بها في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:224-226)، تكلّف الصنعة والخروج إلى المباهاة، والتشاغل عن كثير من الطاعة، ومناسبة أصحاب التشديق"،[24] وهم الذين جاء تحذيرهم صريحاً في قوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والتشادق"، إذ من شأن الشاعر في هذه الحالة أن يجعل الخطاب متكلفاً مستكرهاً، بالبحث عما يملأ الشدقين من غريب اللفظ والتركيب، من غير التفات إلى سماحة التعبير وبساطته.

ومن كان هذا دأبه الأدبي وأداؤه الفني، جعل الفضيلة في آلة البلاغة قصراً على الفصاحة وطلبها، وصرف الغاية إلى منطوق الألفاظ وتتاليها، دون التفات إلى تناسق الدلالات، وتمازج المعاني في نسق متآلف بين اللفظ والمعنى، وتلاقح الأفكار والصياغة في نظم متراحم متواصل، وإلى ذلك أشار الباقلاني: "إن القيوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها، ولذلك قال الله عزوجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: 224-226)، فأخبر سبحانه أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم، وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن، فصار بهذا أبلغ خطابهم".[25]

وتطغى الصنعة اللفظية على العمل الأدبي ويعلو صوتها في الخطاب، حين تضحي الحكمة -وهي الحق وطلبه، والصدق وقوله- غاية غائبة، وفضيلة غير منظورة لدى الشاعر وهاجسه الشعري، فلا يقع في خاطره

---

23 د. ألفت الروبي: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، مرجع سابق، ص143.

24 الجاحظ: البيان والتبيين، ج4، ص29-30.

25 الباقلاني: (أبو بكر محمد بن الطيب ت403هـ): إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، ص226.

تحقيقها، فيغدو التعبير دائراً في مسالك الإطناب وفضول القول، وبراءة الخطاب من ذلك سواء أكان متعلقاً بالإفهام والتفهيم القطعي (الصورة المجردة العارية) أم بالبيان الفني (الصورة المنمّقة)- مطلباً شرعياً جاء به الحديث: "ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً؛ الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون"، وقوله عليه الصلاة والسلام "الثرثارون" يعني الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً، وخروجاً عن الحق، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عين ثرثارة، وكان يقال لنهر بعينه الثرثار، وإنما سمي يه لكثرة مائه. وقوله صلى الله عليه وسلم "المتفيهقون" إنما هو بمنزلة قوله: "الثرثارون" توكيد له، من قولهم: فهق الغدير إذا امتلأ ماءً، فلم يكن فيه موضع مزيد.[26]

ومما يزيد أمر التوجه الإسلامي وضوحاً في سماحة الخطاب وخلوه من التكلف والصنعة اللفظية، وأنه عليه الصلاة والسلام "يريد الصدق في المنطق والقصد، وترك ما لا يحتاج إليه: قول لجرير بن عبد الله البجليّ: "يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف".[27]

وإذا كانت الأشياء بضدها تتمايز، والأساليب بمقابلة بعضها بعضاً تختلف وتتفاضل على أساس الصدق والبراءة من التكلف، فإن الله عز وجل أثنى على خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم بمجانبة الادعاء والنقاء من التكلف، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (صّ:86-88)، وجاء تحديد هذه الصفة وعلاماتها في قوله عليه الصلاة والسلام: "للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم"،[28] وعليه كان مأجوراً من جرى في خطابه بضوء الطبع وسماحة الفطرة، وموزوراً كل من بنى حديثه على الادعاء

---

26 المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة: دار الفكر العربي، ج1، ص4-6.

27 المصدر نفسه، ج1، ص6.

28 الزمخشري: الكشاف، ج4، ص109، وانظر تخريج هذا الحديث في حاشية الكتاب.

والاستكراه والتقعر والصنعة، فعن الزبير بن العوام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "اللهم اغفر للذين لا يدعون ولا يتكلفون، ألا إني بريء من التكلف وصالحو أمتي".[29]

وهكذا اجتمع في خطاب الشعراء الوهم والخيال والكذب والصنعة المتكلفة، فانحرف عن جادة الصواب والإصابة في اللفظ والمعنى" ومن سخف هذا السخف، وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس، والإفراط في مديح من أعطاه، وذم من منعه، فنزه الله رسوله، ولم يعلمه الكتاب والحساب، لم يرغبه في صنعة الكلام، والتعبد لطلب الألفاظ، والتكلف لاستخراج المعاني، فجمع باله في الدعاء إلى الله، والصبر عليه، والمجاهدة فيه، والانبتات إليه، والميل إلى كل ما قرب منه، فأعطاه الإخلاص الذي لا يشوبه رياء، واليقين الذي لا يطوره شك، والعزم المتمكن، والقوة الفاضلة".[30]

وارتكاز الخطاب الشعري على الغي في إثارة انفعال تابعه، وتحريك شعوره ونفسه دون عقله واعتقاده، لا يعني وقوع هذا الخطاب خارج دائرة الوعي، وتفسير ذلك وتوضيحه رهن بإدراك جانبين فيهما مساس بالتجربة الشعرية.

**الأول**: خاص بالعمل الأدبي.

**الثاني**: عام في مسؤولية العمل الإنساني.

أما الجانب الأول -الخاص بالعمل الأدبي- فنجد ذكراً له في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء:225)، إذ إنه تمثيل مستوعب لطبيعة التجربة الشعرية التي يصدر عنها الشاعر في تحقيق غايته التأثيرية التوجيهية من الإغواء، ورمز موح بعنصري التجربة وركنيها الأساسيين اللذيْن تستند عليهما، وهما الشعور الذي دليله ﴿يَهِيمُونَ﴾، والعقل الذي شارته ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾. أما الشعور ودوره فقد سبقت الإشارة إليه في البعد الأول من الأبعاد الثلاثة التي يرتكز عليها الخطاب الشعري الكافر، وأما العقل فقد

---

29 ابن عطيةك المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، الرباط: وزارة الأوقاف المغربية، 1975، ج12، ص494، وانظر تخريج الحديث في هامش تحقيق الكتاب.

30 الجاحظ: البيان والتبيين، ج4، ص30.

أدركه يحيى بن حمزة العلوي إذ قال: "استعار الأودية للمغازي والمقاصد الشعرية التي يلخصونها بأفئدتهم، ويصرفونها بأفكارهم، وخص الاستعارة بالأودية دون الطرق والمسالك، لأن، المعاني الشعرية تستخرج بالفكر والروية، وفيها خفاء وغموض؛ فلهذا كانت أليق بالاستعارة".[31]

فالشاعر واعٍ تماماً لحدود وظيفته، ومدرك إدراكاً شاملاً لمضمون أفكاره ومرامي معانيه، وهي حقيقة مؤكدة عند أهل الأدب والنقد، أبان عنها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "إن هذا النظم الذي يتواصفه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة، وإذا كانت مما يستعان بالفكرة ويستخرج بالروية، فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس، أبالمعاني أم بالألفاظ، فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك".[32]

وقد انتهى التحليل النفسي الحديث إلى أن الشاعر غالباً ما يقع في إبداع المعاني وصياغتها لطائلة من المراجعة والمعاودة، كلما أحس بخلخلة الألفاظ أو عدم دقتها، إذ يحفزه ذلك إلى التحوير والتبديل، بتغيير بعض الرموز وتثبيت آخر، جاء ذلك خلاصة للاستبانة التي حلل إحصاءها الدكتور مصطفى سويف من ردود الشعراء وإجاباتهم المحددة بشأن الوهعي واللاوعي.[33]

ومنذ عصر النهضة وبعده والرأي النقدي الغربي يؤكد أثر العقل وعنصر الإرادة في الإبداع، نجد ذلك في آراء شيكسبير، ولوي دي فيغا، وبوالو، وليسنغ، ومن ثم تطورت آراء هؤلاء على يد تشيز يشيسكي الذي انتقد نظرية (اللاوعي) مشيراً إلى أن الشاعر وإن وصل درجة عنيفة من التوتر في مرحلة الإبداع اللاواعيٍ، لا يستطيع أن يبدع شيئاً عظيماً إذا لم يملك إلى جانب ذلك عقلاً مدهشاً، وفكراً سليماً وقوياً، وذوقاً رفيعاً.[34]

وقدرة الشاعر على استيعاب عنصر (اللاوعي) في العمل الأدبي قدرة لا تخلو من إرادة، مهما تكن حدة الانفعال، ودرجة طغيان التوتر، وقد فهم ذلك فهماً صائباً أدباء الجيل الأول من أهل الإسلام. ففي

---

31 يحيى بن حمزة بن علي العلوي: كتاب الطراز، بيروت: دار الكتب العلمية، 1982، ج1، ص214.

32 عبدالقاهر الجرجاني (ت471هـ): دلائل الإعجاز، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، القاهرة: مكتبة القاهرة، 1976، ص36.

33 د. مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني، القاهرة: دار المعارف 1959، ص348.

34 د. حسين جمعة: قضايا الإبداع الفني، بيروت: دار الآداب، 1983، ص11.

محاورة سلمى زوجة سعد بن أبي وقاص لأبي محجن الثقفي ما يلقي الضوء على ذلك، إذ قالت سلمى: يا أبا محجن، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ قال: أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر، يدب الشعر على لساني يبعثه على شفتي أحياناً فيساء لذلك ثنائي، حبسني حين قلت:

إذا مِتُّ فادْفنّي إلى أصلِ كرمةٍ   تروي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفنَّني في الفلاةِ فإنني   أخاف إذا ما مِتُّ ألاّ أذوقها

فلما أطلقه سعد وقال له: اذهب فما أن مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، قال أبو محجن: والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً".[35]

وإذا تجاوزنا الخلاف حول زمن قوله هذا الشعر، وعدم مؤاخذة سعد لأبي محجن بقول إلاّ إذا كان صادراً عن تجربة حقيقية، فإن حديث أبي محجن يوضح أموراً على قدر كبير من الأهمية في التجربة الشعرية:

**أولها**: إن عنصر (اللاوعي) في تسلله إلى العمل الأدبي يقع في حيز إدراك الشاعر واحتوائه، فقد يطلقه، وقد يقيده.

**ثانيها**: قدرة الشاعر على كبح جماح الانفعال وطغيانه، وتوجيهه الوجهة المرادة..

**ثالثها**: وعي الشاعر في اختيار موضوع تجربته الشعرية.

وفي موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تجربة النعمان بن عدي الشعرية، جانب آخر في تجلية العلاقة بين الوعي و(اللاوعي) في العمل الأدبي، فقد بلغ عمر قولُ والي ميْسَان:

فمَنْ مُبلغ الحسناء أن حليلها   بميسان يسقى في زجاج وحنتم

إذا شئت غنَّتْني دهاقينُ قرية   وصناجة تجثو على كل منسم

---

35 محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق أبوالفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط-4، 1979، ج3، ص549-550.

فإذا كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلم

لعل أميرَ المؤمنين يسوءُه تنادمنا بالجواسق المتهدم

قال: أي والله إني ليسوءني ذلك، وبعث إليه: "وأيم الله إنه ليسوءني، وقد عزلتك"، فلما قدم على عمر، بكته بهذا الشعر، فقال النعمان:" والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلاّ شيء طفح على لساني" فقال عمر: "أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً".[36]

ومهما يرتفع معنى الظن في تعقيب عمر بن الخطاب إلى الأخذ بعنصر (اللاوعي) وتسلله في العمل الأدبي، فإن الإعفاء الوظيفي المطلق، عقوبة تحمل القناعة بمسؤولية المرء عن قوله، والشاعر عن مذهبه، وأن هذا أو ذاك إنما هو مما يقع تحت الإرادة والسيطرة.

وعلى الرغم من عدم تنكر عمر بن الخطاب لعنصر الخيال في التجربة الشعرية، إلاّ أن قراره بعزل النعمان، تعبير عن فهم إسلامي متميز لأبعاد المنطق الشعري، وهو أن الخيال المنحرف يظل دليلاً على فساد التصور، ورداءة التوجه.[37]

وذهب الفلاسفة المسلمون المذهب نفسه من أن مخيلة الشعر لا بد من ضبطها بقوانين العقل، حرصاً على سلامة التوجيه، ذلك أن الشعر مُوَجَّه أساساً إلى مخيلة المتلقي التي ترتبط بنوازع قوية من الانفعالات والغرائز التي تحرك السلوك الإنساني وتؤثر فيه، وعليه لا ينبغي أن يترك الخيال الشعري دون رعاية العقل، فمن الضروري أن يظل العقل مهيمناً عليه.[38]

أما الجانب الثاني العام وهو مسؤولية الإنسان عن عمله، فمن المقرر شرعاً أن الإنسان يصدر عن وعي تام في كل ما يصدر عنه من أقوال أو يقدم عليه من أفعال، فقوله محصي عليه، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة قّ:18)، وفعله معدود عليه مهما يكن شانه من الصغر أو الكبر،

---

36 ابن سعد (أبوعبد الله محمد بن سعد): الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، 1957-1968، ج4، ص140، وانظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج10، ص165، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص149.

37 د. مصطفى عليان: مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، جدة: دار المنارة، 1985، ص15-17.

38 د. ألفت كمال الروبي: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، مرجع سابق، ص68.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:47)، وقال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:16)، فالآيات تدل بظاهرها على أن لكل مكلف ميزاناً توزن به أعماله، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة.[39]

على أن الشاعر إنسان مكلف بالتكاليف جميعاً التي جاء بها الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:208)، وهذه التكاليف شاملة حتى الإحساس والهوى والميل، قال عليه الصلاة والسلام: "والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به". وقد فسر حذيفة بن اليمان الآية السابقة بقوله: "الإسلام ثمانية أسهم، الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له في الإسلام"،[40] وزد على ذلك أن الشاعر خارج عن التقييد الذي أخرج به الرسول صلى الله عليه وسلم من هم في حالة (اللاوعي) التي تخرج صاحبها من تبعة ما يقول وما يفعل، وذلك في قوله: "رفع القلم عن ثلاثة: الصغير حتى يكبر، والنائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق".

ولا يحتج في هذا المقام بقوله تعالى ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: 2)، على إتيان العمل من غير وعي، إذ ليس المراد "وأنتم لا تشعرون" ما يوجب أن يكفر الإنسان بغير علم، قال الزجاج: "فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم"،[41] فدلت الآية على الوعي والاختيار، وأرشدت إلى أن على المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك، لا يزال يحترز ويتوقّى ويتحفظ خشية أن يرتكب من الآثام ما يحبط عمله".[42]

وقد راج بين الباحثين أن الآيات الأخيرة من سورة الشعراء نزلت في شعراء الأنصار، حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومستند ذلك مرويات عدة، فقد أخرج ابن جرير الطبري في

---

39 القرطبي: الجامع لأحكم القرآن، مصدر سابق، ج11، ص293.

40 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص27.

41 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص308.

42 الزمخشري: الكشاف، ج4، ص355.

تفسيره من حديث محمد بن سعد العوفي قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وأنهما تهاجيا، وكان مع كل منهما غواة قومه، وهم السفهاء، فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾،[43] وهذا إسناد مظلم ما بين شيخ الطبري والراوي ابن عباس، لا يحتج بواحد من رواته.[44]

وأخرج ابن جرير نحوه عن الضحاك،[45] وهو مقطوع على التابعي، وفيه إبهام شيخ ابن جرير؛ لأنه قال: حدثت عن الحسين،[46] وأخرج ابن حاتم عن عكرمة بنحوه.[47]

وإذا صحت نسبة هذه الأخبار إلى صاحبيها، عكرمة والضحاك، فيستأنس بهما من غير احتجاج.[48]

وروى ابن حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة عن الوليد بن أبي كثير عن يزيد بن عبد الله عن أبي الحسن مولى بني نوفل، أن حسان وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أنزلت هذه الآية ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون﴾ يبكيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقرؤها عليهما ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ حتى بلغ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشعراء: 227) قال: أنتم.[49]

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو مسلم، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لايَفْعَلُونَ﴾، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، قد علم الله أني منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشعراء: 227).[50]

---

43 الطبري: جامع البيان، ج9، ص27.

44 عذاب الحمش: الشعر في الإسلام، ص28، وانظر المؤلف نفسه: ثعلبة بن حاطب، ص64-65، الرياض: دار بدر، 1986.

45 الطبري: جامع البيان، ج19، ص127.

46 عذاب الحمش: الشعر في الإسلام، مكة المكرمة: دار صنعاء، 1409هـ، ص38.

47 السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت911هـ): الدر المنثور، ج5، ص99.

48 عذاب الحمش: الشعر في الإسلام، ص29.

49 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص354.

50 المصدر نفسه: ج3، ص354.

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عروة قال: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ إلى قوله ﴿مَا لا يَفْعَلُونَ﴾، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أني منهم، فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾، وروى نحو هذا من طرق.[51]

ويدل الحوار أيضاً على أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾، هو استثناء لشعراء المدينة أو الشعراء المؤمنين، وبذلك قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وزيد بن أسلم وغير واحد، قال ابن كثير: "ولا شك أنه استثناء، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلاّ مرسلات لا يعتمد عليها والله أعلم".[52] والحق أن المرسل[53] من الأحاديث موضع خلاف بين أهل العلم، فقد ذهب أهل الحديث إلى الحكم بضعفه، وان الإخبار به ليس بحجة، بذلك قال مسلم: "إن المرسل في اصل قولنا وقول أهل العلم بالإخبار به ليس بحجة"،[54] وكذا حكاه ابن عبد البر عن جماعة من أصحاب الحديث.[55]

قال ابن الصلاح: "وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو الذي استقر عليه آراء جماعة حفاظ الحديث ونقاد الأثر، وتداولوه في تصانيفهم".[56]

ويحتج أهل الفقه بالمرسل من الأحاديث، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابهما، وهو محكي عن الإمام أحمد بن حنبل في رواية، أما الشافعي فنص على أن مراسيل كبار التابعين حجة، إن جاءت من وجه آخر، أو اعتضدت بقول صحابي، أو أكثر العلماء، غير أن مراسيل غير كبار التابعين لا يقبلها أحد.[57]

---

51 الشوكاني: فتح القدير، ج4، ص142.

52 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص354.

53 قال ابن الصلاح في تعريفه: "وصورته التي لا خلاف فيها: حديث للتابعي الكبير الذي أدرك جماعة من الصحابة وجالسهم، كعبيد الله بن عدي بن الخيار، ثم سعيد بن المسيب، وأمثالهما، إذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" (التقييد والإيضاح في شرح مقدمة ابن الصلاح ص55).

54 الحافظ العراقي (زين الدين بن عبد الرحيم بن الحسين ت806هـ): التقييد والإيضاح في شرح مقدمة ابن الصلاح، بيروت: دار الحديث للطباعة والنشر، 1984، ص58.

55 المصدر نفسه: ص58.

56 المصدر نفسه: ص58.

وقد يشفع لهذه المراسيل من الأخبار بخصوصيتها بشعراء الأنصار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنهضهم للدفاع عن الإسلام وأهله، وهجاء قريش ومناقضة شعرائها ومن ساندها من قبائل المشركين، إذ لم يكن للدعوة الإسلامية في مكة أي من الشعراء ينافح عنها.

ويدفع هذه الشفاعة أمران:

**أولهما**: أن الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ليس خاصاً بشعراء الأنصار، بل هو عام لكل من آمن من قريش وغيرها من المشركين، قال ابن كثير: "ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه".[58]

ثانيهما: أن قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام.[59]

والاستئناف وإن كان ما بعده ابتداء وإخباراً، فإن النحاة لا يعنون به عدم تعلق الجملة بما قبلها في المعنى، بل في الإعراب فقط.[60]

والشاعر المؤمن سواء أكان مكياً أم مدنياً فقد استثنى الله تجربته الشعرية المغايرة لتجربة شاعر الغواية التي عرفناها في مصادرها المثيرة للشهوات بخطابها لمخيلة المتلقي وشعوره، وأدركناها في أدواتها التعبيرية القائمة على الوهم والخيال والكذب والصنعة المتكلفة. أما شاعر الإسلام فسبيل تجربته الإيمان، وغايته الهداية،

---

57 ابن كثير: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، تحقيق: أحمد شاكر، القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح، الطبعة الثالثة، ص48-49، وانظر التقييد والإيضاح، ص59.

58 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص304.

59 أبو السعود: تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) ج4، ص239.

60 خالد الأزهري: شرح التصريح على التوضيح، ج1، ص363، وحاشية الصبان على شرح الأشموني، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ج2، ص163.

ومنهجه الالتزام بالحق والصدق، والبراءة من التكلف، وما إلى ذلك من مقتضيات ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ يقول الرازي: "إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بياناً لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة:

**أحدها**: الإيمان وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

**وثانيها**: العمل الصالح وهو قوله تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

**وثالثها**: أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق وهو قوله: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.[61]

**ورابعها**: أن لا يذكروا هجو أحد إلاّ على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، وهو قوله : ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ (الشعراء: 227).

وهذه الصفات تمثل الشخصية الإسلامية ببعديها ومقوميها العقلي والنفسي، فالإيمان مطلب شرعي يحققه الاعتقاد الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وهذه المطالب الستة هي المفاهيم الضابطة لسلوك المسلم في الحياة الدنيا نحو الآخرة. ولما كان السلوك هو أعمال الإنسان التي يقوم بها لإشباع غرائزه وحاجاته العضوية، أو بمعنى آخر، لما كان السلوك هو ميول الإنسان ونفسيته المرتبطة بمفاهيمه،[62] فإن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ صفات لسلوك منهجي، وميل نفسي منضبط بوحدة المقياس للميول جميعاً، وهو الإيمان عند الشاعر المسلم.

وغني عن القول والبيان أن الشعر الذي يصدر عن الشخصية الإسلامية المتميزة بتطابق مفاهيمها وميولها، أو عقليتها ونفسيتها، هو الشعر الذي أراد الله له السيادة في الأرض، والسيرورة بين الناس؛ ليعمر حياتهم ويوجه انفعالاتهم وسلوكهم، ولذلك ختم الله عز وجل هذه الآيات بتهديد شديد، ووعيد أكيد بقوله:

---

61 الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج9، ص176.

62 د. مصطفى عليان: بناء الشخصية في القصة القرآنية، د: دار البشير، عمان، 1992، ص11-16، وانظر: محمد محمد إسماعيل: الفكر الإسلامي، بيروت: ص10-110.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: 227)،[63] وبذلك قال جمهور المفسرين: "المراد فيه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء".[64]

ومن المقرر في النقد الأدبي أن العمل الأدبي يشبه الكائن الحي في اتصاله بذات منشئه وانفصاله عنها، إذ إنه يتخلق في وجدانه في حمى أهوائه وميوله، وينزع في أعماقه في حياطة عقله واتجاه فكره، فلا غرابة أن ترف في التجربة الشعرية لدى الشاعر المسلم صورة شخصه، وأن يسمع فهيا نبض وجدانه، وصوت اعتقاده، إذ إن الشعر في التصور الإسلامي منحة إلهية، وهبة ربانية، جعلها الله "من جملة هباته للمخلوق وزينته التي يكسوها من يشاء كما قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ (فاطر:1)، ولولا أن تكون هذه المزية والفضيلة السنية، موهبة من الله تعالى، لما تعسرت على العلماء، مع معرفتهم بأدواتها، وقبضهم على أزمة آلاتها، وتسهلت على الخلو من الأدب، والنضو في مسارح ذلك الصبب، حتى يقول ما لا يعرف تعليله، وينظم ما يجهل فروعه وأصوله".[65] فمسؤولية الشاعر تعظم بإدراكه لهذه الحقيقة التي ترشده إلى أن يوظف شاعريته في الحق والخير والجمال الملازم لهما، وتفرض عليه أن يجافي بموهبته مواطن الشر والباطل والقبح المستظل بهما، وهو في الحالة الأولى مأمور؛ لأنه محسن متعبد بالنعمة، في حين هو في الحالة الثانية موزور؛ لأنه انحرف بالنعمة إلى مهاوي النقمة.

وإيمان الشاعر بهذه المسؤولية، وسعيه لرضا الله بها، يجعل تجربته الشعرية سائرةً في الجدد من المسالك، آمنة عثار العقل في الرأي، والفساد في التصور لأنها محوطة بضابط من العقيدة في الكتاب والسنة، وفقه من السيرة النبوية، ووعي لرؤية حركة التاريخ الإسلامي في متقلب عصوره وأزمانه، إذ يستطيع الشاعر الموهوب بهذا الإرث أن يمزج الماضي بالحاضر في تواصل دلالي وإيحائي في كل ما تنفست فيه مشاعره، هتفت به أعماقه.

---

63 الألوسي (محمود الألوسي ت1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج21، ص152.

64 الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج9، ص24، 176.

65 المظفر بن العلوي: نضرة الإغريقي في نصرة القريضي، ص358-359.

ومن الشعراء من تعمق إحساسه بالإسلام، وامتلأت مشارب خاطره به، فاختصت نصوصهم بضوابط التجربة الشعرية الإسلامية فكراً وفناً، ومنهم من انحسر إحساسه به، وجانب فكره إياه، فانحرف شعره إلى الفحش والهجاء وسوء القول.

ومثل هؤلاء هم شعراء مسلمون، غير أنه يعتري أدبهم ما يعتري الشخصية الإسلامية في أقوالها وأفعالها من معاصٍ وآثام أحياناً، ذلك أنه "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن"؛[66] لأن الإيمان ضابط عقدي للميل والسلوك، فمن كان هذا حاله من الزنى والسرقة وشرب الخمر، فإنما هو مفارق للإيمان وحقوقه في فترة فعله ومعصيته؛ لأن الإيمان كما جاء في الحديث سروال المؤمن، فإذا زنى نزع عنه سرواله"، قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا، وشبك بين أصابعه، ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه".[67] فلا يجرد من الإيمان من أتى فعلاً من هذه الأفعال على إطلاق؛ لأن في هذا سوطاً وضعفاً وهبوطاً وانتكاساً، يتأتى النهوض منه بالالتصاق بمعززات الإيمان من التوبة واتباع السيئة الحسنة حتى تمحوها، قال ابن تيمية في تعليقه على الحديث: "المسلم إذا أتى الفاحشة لا يكفر، وإن كان كمال الإيمان الواجب قد زال عنه. فأصل الإيمان معه، وهو قد يعود إلى المعصية، ولكنه يكون مؤمناً إذا فارق الدنيا، ذلك أن معه أصل الإيمان معه، وهو قد يعود إلى المعصية، ولكنه يكون مؤمناً إذا فارق الدنيا، ذلك أن معه أصل الاعتقاد: أن الله حرم ذلك، ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمته، وإيمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ، فيغفر الله له به".[68]

فالإنسان بشر يصيب ويخطئ، ويسمو ويهبط، وهو في تقلب هذه الأحوال يظل شخصية إسلامية، ما دام يحمل تكويناً عقدياً فكرياً يضبط سلوكه، ويوجه ميله؛ والذين يتصورون الشخصية الإسلامية بلا أخطاء، إنما يتصورونها ملائكية خالصة.

---

66 العسقلاني (أحمد بن حجر): فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة، ج12، ص58-59.

67 المصدر نفسه: "كتاب المحاربين".

68 ابن تيمية: الاستقامة، مصدر سابق، ج2، ص181-182.

ولكن ثمة فرقاً بين من كانت هذه حاله من البادرة أو النادرة المخلة بكمال شخصيته وتمامها، ومن عرف بالكذب وإيذاء المسلمين في شعره، واشتهر أمره في ذلك، يقول الشافعي: "فمن كان من الشعراء لا يعرف بنقص المسلمين وأذاهم، والإكثار من ذلك، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب، لم ترد شهادته، ومن أثر الوقيعة في الناس على الغضب، أو الحرمان، حتى يكون ذلك ظاهراً كثيراً مستعلناً كذباً محضاً، ردت شهادته بالوجهين (يقصد بالمدح أو الذم) وبأحدهما لو انفرد به. ومن شبب بامرأة بعينها ليست ممن يحل له وطؤها حين شبب فأكثر فيها، وشهرها شهر مثلها بما يشبب، وإن لم يكن زنى ردت شهادته".[69]

ويرى الحنابلة رأي الشافعي في رد شهادة الشاعر المسلم الذي عرف بهجاء المسلمين أو الكذب، يقول ابن قدامة: "فأما الشاعر، فمتى كان يهجو المسلمين، أو يمدح بالكذب أو يقذف مسلماً أو مسلمة، فإن شهادته ترد، وسواء أقذف المسلمة بنفسه أم بغيره، وقد روينا أن أبا دلامة شهد عند قاض أظنه ابن أبي ليلى فخاف أن يرد شهادته فقال:

إنِ النّاسُ غطُّوني تَغَطَّيْت عنهم　　　وإنْ بحثوا عنّي ففيهمْ مباحثُ[70]

فمعادل الشاعر المسلم عند الفقهاء ألاّ يكون مردود الشهادة، بمعنى أن يكون مسلماً بعيداً عن خوارم المروءة في شعره من التشبيب بالنساء، أو انتهاك أعراض الناس، وانتقاصهم بالسباب والهجاء، أو الكذب في مدحهم، وما إلى ذلك مما يشينه وينتقص من شخصيته الإسلامية.

ومردود الشهادة من الشعراء فاسق ما دام مكثراً في شعره مما يؤذي الناس بالفحش والخنا، والهجاء والأذى، والفسق طعن في مروءة الإنسان، التي هي شرط في عدالته، والعدل أو العدالة شرط أساسي في قبول الشهادة، لقول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُم﴾ (الطلاق: 2)، ولذلك لا تقبل شهادة الفاسق لقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: 6). فأمر الله عز وجل بالتوقف عن نبأ الفاسق، والشهادة نبأ، فيجب التوقف عنه.[71]

---

69 الشافعي (أبو عبد الله محمد بن إدريس ت204هـ): الأم، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1900، ج6، ص212.

70 ابن قدامة: المغني، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، 1984م، ج12، ص46.

71 المصدر نفسه، ج12، ص28.

والعدل من الناس من لم يظهر منه ريبة، وجملته هو الذي تعتدل أحواله في دينه وأفعاله وأحكامه، فقد أمر الله ألا تقبل شهادة القاذف، ويقاس عليه كل مرتكب كبيرة، ولا يخرجه من العدالة فعل صغير لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (النجم: 32)، واللمم كما قيل: هي صغائر الذنوب، ولأن التحرز منها غير ممكن، والكبائر كل معصية فهيا حد.[72]

ووقف خلفاء المسلمين وأولو الأمر من أمثال هؤلاء في الشعراء في الحياة الإسلامية موقفاً صارماً وخاصة الشعراء المجاهرين بالفسق والمعصية، فعاقبوهم بالتعزيز والجلد والنفي، فقد توعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشعراء ألاّ يشبب أحد بامرأة إلاّ جلده،[73] ويقال إنه سمع سحيم عبد بني الحسحاس ينشد:

ولقد تحدَّرَ من كريمةِ بعضهم    عرقٌ على جنب الفراش وطيب

فقال له: إنك مقتول؛[74] وهجا الحطيئة الزبرقان بن بدر فاستعدى عليه عمر فحبسه في نقير في بئر، ولما استعطفه وأطلق سراحه، اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم، ليؤكد عليه الحجة كما روي عن عبد الله بن المبارك،[75] وحبس عثمان بن عفان رضي الله عنه ضابئ بن الحارث البرجمي حين هجا قوماً من بني نهشل ورمى أمهم بكلب، وقال له: "ويلك! ما سمعت أحداً رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرك! وإني لأراك لو كنت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنزل فيك قرآناً، ولو كان أحد قبلي قطع لسان شاعر في هجاء لقطعت لسانك، فحبسه في السجن".[76]

وروى القرطبي في هذا المجال أخباراً عن عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك، فقد روى عن الزبير بن بكار قال: حدثني مصعب ابن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له همّ إلاّ عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتب إلى عامله على المدينة: "إني قد عرفت عمر والأحوص

---

72 المصدر نفسه، ج12، ص32.

73 أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مصدر سابق، ج4، ص356.

74 ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم، 276هـ): الشعر والشعراء، طبعة ليدن 1902م، ص242.

75 أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص185-186، 189.

76 ابن سلام (محمد بن سلام الجمحي ت230هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: طبعة المدني، ج1، ص173-174.

بالشر والخبث، فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما، واحملهما إلي"، فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر فقال هيه!

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أفلتن ذا الهوى

وكم مالئ عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك، فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام، فمتى يفلتون؟ ثم أمر بنفيهما، فقال: يا أمير المؤمنين، أو خير من ذلك، فقال ما هو؟ قال: أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبداً وأجدد توبتي، فقال: أو تفعل؟ قال: نعم، فعاهد الله على توبته وخلاه.

ثم دعا بالأحوص فقال: هيه!

الله بيني وبين قيمها يفر مني بها وأتّبعُ

ثم قال: بل الله بين قيمها وبينك، ثم أمر بنفيه، فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال: والله لا أرده ما كان لي سلطان، فإنه فاسق مجاهر".[77]

وفي هذا الخبر وصف لعمر بن أبي ربيعة والأحوص بالشر والخبث والفسق والمجاهرة به، وفيه النفي والتشريد لزعزعة النفس وشتات أمرها في اغتراب يردع عن الغير، ونزوح تحمل معاناته على الرشد، على أن عمر بن عبد العزيز يصدر في تهديده وقضائه عن وعي أن الشعر المذموم (الفاحش) لا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد ولا غيره، فهذا حكمه وحكم صاحبه.[78]

وشهر الفرزدق بفسقه وقذفه النساء وهجاء الناس بقبح وشناعة، فتحاموه لخبث لسانه، وقد روى عنه أن سليمان بن عبد الملك لما سمع قوله:

---

77 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص150.

78 المصدر نفسه: ج13، ص150.

فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

قال قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾.[79]

وكان الفرزدق بهذا الفسق مردود الشهادة، وهو الموقف الشرعي الذي ترجمه إياس بن معاوية، فقد أخرج أبو الفرد بسنده عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي عن عمه عن بعض أشياخه قال: شهد الفرزدق عند إياس بن معاوية فقال: أجزنا شهادة أبي فراس، وزيدونا شهوداً، فقام الفرزدق فرحاً، فقيل له: أما والله ما أجاز شهادتك، قال: بلى، قد سمعته يقول: قد قبلنا شهادة أبي فراس، قالوا أفما سمعته يستزيد شاهداً آخر؟ فقال: وما يمنعه ألاّ يقبل شهادتي وقد قذفت ألف محصنة؟.[80]

ولم يكن الفرزدق بهذا الفسق منبت الصلة بالإسلام، أو منسلخاً من عقيدته، على الرغم من كثير من العادات الجاهلية التي عرف بها، يقول الشريف الرضي: "وكان شيعياً مائلاً إلى بني هاشم، ونزع في آخر عمره عما كان عليه من القذف والفسق، وراجع طريقة الدين، على أنه لم يكن في خلال فسقه منسلخاً من الدين جملة، ولا مهملاً لأمره أصلاً". ويستأنس لذلك بعدد من المرويات التي يقول بعضها إنه كان يقسم: "واللهِ، للهُ أحب إليَّ من عيني هاتين، افتراه يعذبني بعدها"، فضلاً عن ثقته برحمة ربه، وحسن ظنه به، وتعلقه بأستار الكعبة، ومعاهدته الله على ترك الهجاء والقذف.[81]

ولا يعني القول بعدم انسلاخه من الدين جملة، وعدم إهماله لأمره أصلاً، أن نبالغ في رصد أثر الإسلام في شعره من خلال الدلالة على توكئه على بعض المفاهيم العقدية والقصص القرآنية والأخلاق الإسلامية، وما أشبه من معان شملتها قصائد له في مدح أو رثاء، قداً إلى رفع درجة إسلامية نصوصه وشعره؛ لأنّ هذه المعاني وما تتعلق به من أساليب تعبيرية، أثر من مخزون راسب في اللاشعور، غذاه عكوفه على حفظ القرآن

---

79 ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مصدر سابق، ص297-298.

80 الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص395.

81 الشريف الرضي (علي الحسين الموسوي العلوي): أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1954، ج1، ص62-64.

في صغره حين قيد نفسه لحفظه، ورفده سماع من مجالس العلماء ومعطيات الحركة الفكرية في عصره، فليس غريباً هذا التأثر، بل الغريب ألاّ يتأثر الفرزدق بهذه الروافد.

ولكننا نقول: إن هذه المصادر كانت مجرد معارف أو معلومات عند الفرزدق، ولم تكن مفاهيم ذات واقع في ذهنه ثم في سلوكه، بمعنى أن هذه المعلومات لم يحس بها، ولم يسلم بها تسليم الواقع المحسوس، فهو قد فهم هذه المعلومات، وفهم المراد فيها، ولكن لم يتكون لها في ذهنه واقع محسوس لا حساً ولا تصديقاً ولا تسليماً، فهي مجرد معلومات أو معارف عن العبادة وحدود الشريعة والأخلاق والجهاد وما إلى ذلك؛ والمعلومات لا تؤثر في الأشخاص، وإنما تؤثر المفاهيم، لأن لها وقع في ذهن من أدركها.[82]

واختلط الأمر لذلك على كثير من الباحثين في هذا الجانب، إذ اعتنوا بإحصاء المعلومات الإسلامية في شعر الفرزدق، ومن كان على شاكلته، حيث يقول قائلهم: "ويكفي أن نتصفح ديوان شاعر كالفرزدق المستهتر، لم يكن الإسلام بعيداً عن نفسه، بل كان يعمل به في سريرته"؛[83] وظن بعض الباحثين أنهم بذلك يؤكدون أثر الإسلام في الشعر، ولم يفطنوا إلى الفرق بين المفاهيم التي لها واقع في الذهن تصديقاً وتسليماً وإحساساً، والمعارف أو المعلومات المجردة عن الواقع والسلوك.

وليس أدل على هذا الخلط من أنهم يؤكدون تأثر الشاعر بالإسلام في شعر الهجاء، الذي هو أفسدُ أضربِ الشعر عند أهل العلم في الإسلام، إذ ينبه بعضهم على تأثر الفرزدق بالقرآن في هجاء جرير:[84]

فإنك في هجاء بني نمير		كأهل النار إذ وجدوا العذابا

رجوا من حرِّها أن يستريحوا		وقد كان الصديد لهم شرابا

وكذلك في هجاء الطرماح فقد تأثر الفرزدق بالقصص القرآني حيث يقول:[85]

---

82 محمد محمد إسماعيل: الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص71.

83 د. شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، القاهرة: دار المعارف، 1991، ص62.

84 د. ابتسام مرهون الصفار: أثر القرآن في الأدب العربي، بغداد: دار الرسالة، 1974، ص105.

85 د. مصطفى عبد الواحد: أثر الإسلام في شعر الفرزدق، القاهرة: دار الصلاح، 1982، ص64، وانظر ابتسام مرهون الصفار وتاثر كل من جرير والفرزدق بضربهما المثل في الهجاء بقصة السامري، ص115.

وإني أنا النجم الذي عذبت به ترى أمة بادت وباد نخيلها

وكان الطرماح الأحيمق إذا عوى كبكر ثمود حين حنّ فصيلها

وفي هجاء أتباع هميان بن عدي السدوسي، أشار الفرزدق إلى عاقبة العصيان بقوله:[86]

ألم يكن مؤمن فيهم فينذرُهُم عذاب قوم أتوا الله عصيانا

وكم عصى الله قومٌ فأهلكهم بالريحِ أو غرقاً بالماء طوفانا

فالنار والعذاب والإهلاك والعصيان، معان مجردة نقلها الفرزدق بمعزل عن تصديقها والتسليم بها والإحساس بها، إذ لو كانت مفاهيم ذات واقع في حسه وعقله ونفسه، لردعته عن الإسفاف والإقذاع والإفحاش، فما فائدة أن نعد إحصائيات في هذا المجال فنقول إننا وجدنا أكثر من مائة شاهد في الشعر تأثر فيه الفرزدق بالقرآن، وأقل من هذا العدد نجده في شعر جرير، وأقل من ذلك نجده في شعر الراعي النميري،[87] ما دام هذا العدد معلومات مجردة لم تنعكس على واقعه السلوكي بالتغيير.

ومهما يكن من قول حول درجة إسلام الشاعر الفاسق، أو درجة إسلامية شعره المتأثر بالإسلام أو المعارف الإسلامية، سواء أكان الفرزدق أم عمرو بن ربيعة أم الأحوص أم نظراءهم في الأدب القديم، فإن سوء هذا الشعر يظل جارياً في حدود المعاصي والآثام التي يرتجى لها التوبة والمغفرة، وذلك بالمقايسة بالكفر الصريح الذي يشمله الشعر المعاصر من الاستخفاف بالألوهية والتطاول على مقامها، والعبث بالمفاهيم الدينية، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومن أمثلة هذا الشعر قول بدوي الجبل (**عرائس الشعر**):[88]

نشارك الله جل الله قدرته ولا نضيق بها خلقاً وإتقانا

---

86 المرجع السابق، ص61.

87 د. ابتسام مرهون الصفار: أثر القرآن في الأدب العربي، ص126.

88 انظر: د. عبد الباسط بدر: مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، جدة: دار المنارة، 1985، ص60-65.

وأين إنسانه المصنوع من حمأ ممن خلقناه أطياباً وألحانا

ولو جلى حسنه إنسان قدرتنا لود جبريل لوصغناه إنسانا

يفنى الجميع ويبقى الله منفرداً فلا أنيس لنور الله لولانا

لنا كلنا بقاء لا انتهاء له وسوف يشكو الخلود المرء لولانا

ويقول بدر شاكر السياب (في المغرب العربي):

فنحن جميعاً أموات

أنا ومحمد والله

هذا قبرنا أنقاض مئذنة معفرة

عليها يكتب اسم محمد والله

على كسرة مبعثرة

من الآجر والفخار

وفي هذا شاهد على مدى الانحطاط الذي وصل إليه الشاعر المعاصر بشعره الفاسد الذي لا يتورع فيه عن الكفر والإعلان عنه والتباهي به، فكيف يعد صاحب هذا الشعر شاعراً إسلامياً؟

والشاعر المسلم إن حمَّل شعره مبادئ الخير ولاحق والحكمة لا يعد شعره إسلامياً؛ لأنه فقد شرطاً أساساً في صدور تجربته عن مفاهيم غير إسلامية، فمنطلقاته وتصوراته مرتبطة بالمعارف التي ليس لها في ذهنه حسٌ وواقعٌ وتصديقٌ وتسليم، فهو في تعبيره عن ذلك إنما ينقل معلومات مجردة ومعارف بعيدة عن الواقع، فهو وسيط ناقل فحسب، إذ لو كان لمعلوماته ارتباط بمفهوم الكون والإنسان والحياة صدقاً وحقاً، لما توانى عن الارتباط بالإسلام، ولا تخلف عن اتباع مفاهيمه. ولنا في موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد عدل، ودليل حق مرشد لأكثر من أمر، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه

قال: "ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت"، وزاد في رواية أخرى من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الطائي عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: استنشدني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث إبراهيم بن ميسرة وزاد: "قال إن كاد ليسلم"، وفي حديث ابن مهدي قال: "فلقد كاد يسلم في شعره".[89]

وروى مسلم أيضاً بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم".[90] فقد ذهب شعر أمية بن أبي الصلت بعامة ذكر الآخرة كما قال الأصمعي،[91] وهو يدل على تمكنه من هذا الغرض وقدرته على لوازمه من معاني الوحدانية والبعث، ولهذه المعاني استزاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من سماع شعره، إذ هو موافق لمنهجه واعتقاده إلاّ أن تعقيب الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الشعر: "إن كاد ليسلم" و"فلقد كاد يسلم في شعره"، يؤكد مقاربة شعر أمية للإسلام، غير أنه ليس إسلامياً على التحقيق، وذلك ما يفيه "يكاد" الذي صُدِّر به تعقيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

وموافقة شعر أمية للإسلام ومقاربته له، تجعله نافعاً مفيداً، فقد جاء في الأثر: "الحكمة والكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها".[92] وعلق القرطبي على موقف الرسول صلى الله عليه وسلم

---

89 الإمام مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت261هـ): صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج15، ص11-12.

90 المصدر نفسه: ج15، ص12-13.

91 الأصمعي (بعد الملك بن قريب (215هـ): فحولة الشعراء، تحقيق د. محمد عبدالقادر، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، 1991، ص127.

92 رواه ابن ماجة والترمذي في السنن وقال: غريب لا نعرفه من هذا الوجه، وفي روايته إبراهيم بن الفضل ضعيف، وفي ميزان الاعتدال ابن إبراهيم بن الفضل شيخ مدني ضعيف لا يكتب حديثه، ورواه السخاوي في المقاصد الحسنة، وفي أحد رواته القضاعي، وهو متروك.

من شعر أمية بن أبي الصلت بالقول: "وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها، إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية لأنه كان حكيماً".[93]

وكذلك يقال عن طاغور الشاعر الهندوسي وموافقة جوانب من شعره الإسلام، إذ هناك نقط التقاء مع منهج الإسلام في شعور المودة والحب نحو الحياة والأحياء، والدعوة الدائمة للتسامح والخير بين الناس، والانفلات من الحياة الدنيا نحو عالم النور والطلاقة.[94]

غير أنها تَظَلُّ دلائل على معارف ومعلومات لا تصل حد المفاهيم والأفكار التي يقيم عليها الإسلام تصوره عند الشاعر المسلم.

وهكذا يتضح مما سبق بيانه أن التجربة الشعرية لدى الشاعر المسلم تكون ذات طابع خلقي ديني، إن صدرت عن الشخصية الإسلامية بصفاتها من الإيمان والعمل الصالح وذكر الله والانتصار من المظالم، أو بمقوميها العقلي والنفسي وضابطهما العقدي، وحين تتكامل هذه الصفات وتتوازن يكون الحق والصدق مبدأ التجربة ومآلها، ومنطلقها التأسيسي ومنتهاها الفكري، فتتأيد بالله وتتعضد؛ لأنها من منهجه تقبس، وبنوره تهتدي في ضبط الميل من التحرر ولانطلاق مع هوى النفس إقبالاً وإعراضاً.

وقد يختل التوازن في قطبي التجربة الشعرية عند الشاعر المسلم حين تنزع النفس نحو الانحراف، وتتحرر من سلطان العقل ورعايته، فتصبح الشهوة واللذة هي الرؤية والغاية، وذلك أن النفس قد توجه إلى الخير وتعضد فعله، وقد تدعو إل الشر وتزين الخوض فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف:53)، وحين تتجه التجربة إلى هذا الاتجاه، وتنحرف إلى الفحش والخنا والفساد، فليس ثمة فرق بين الشاعر المسلم والكافر، إذ كلاهما يصدر عن الغواية ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، يقول ابن تيمية: "إن الشعر يكون من الشيطان تارة، ويكون من النفس أخرى، كما أنه إن كان حقاً يكون من روح القدس"

---

93 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص145.

94 محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، بيروت: دار الشروق، 1983، ص200.

وقال: أهجهم وهاجهم وروح القدس معك" فلما نفى قسم الشيطان نفى قسم النفس، ولهذا قال: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾".[95]

ولما كان الشاعر المسلم معنياً بأن ينقل للناس أفكاراً ومفاهيم عن الإنسان والكون والحياة، كان لا بد أن يعمل على تقريبها من أذهانهم بمحاولة اقترانها بواقعها المحسوس لديهم، أو بواقع قريب مما يحسونه، وإن لم يفعل ذلك فإنه لم ينقل لهم أفكاراً، ولم يثبت لديهم مفاهيم.[96] ولا شك أن لذلك مطالب في لغة التعبير، ووسائل التوصيل، كالإبانة والوضوح، بعيداً عن تعمّد طلب الألفاظ، وتكلف استخراج المعاني، وكالصدق في الإحساس والإخلاص في التعبير عنه، ولا يتأتى ذلك ولا ستسهل، إلا بالتقوى واليقين، وللشعراء في خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، إذ أعطاه الله "الإخلاص الذي لا يشوبه رياء، واليقين الذي لا يَطُورُه شك، والعزم المتمكن، والقوة الفاضلة... ثم رأوه في جميع دهره في غاية التسديد والصواب التام، والعصمة الفاضلة، والتأييد الكريم، علموا أن ذلك من ثمرة الحكمة ونتاج التوفيق، وأن تلك الحكمة من ثمرة التقوى، ونتاج الإخلاص".[97]

95 ابن تيمية: الفتاوى، ج2، ص51.

96 محمد محمد إسماعيل: الفكر الإسلامي، ص75.

97 الجاحظ: البيان التبيين، ج4، ص30-31.